الحياة الفكرية والثقافية البربرية

تعتبر الحياة الفكرية والثقافية البربرية في عصر الممالك البربرية مجهولة الحال عندنا إلى حد كبير، إلا أننا يمكننا أن نستخلص بعض ملامحها من خلال بعض جزئيات المادة التاريخية والأثرية، وبخلاف هذا العصر كانت الحياة الفكرية البربرية في العصر الروماني واضحة المعالم؛ إلا أنها تبقى ذات طابع مرومن، وإن كان أصحابها من علية البربر.

أ- اللغة و الكتابة البربرية القديمة:

باستثناء البونية لم يتحدث البربر في عصر ملوكهم في مدن بلادهم غيرها، وغير مجموعة من اللهجات البربرية القديمة؛ فقد جعل ماسينيسان وسيفاقص ومن خلفهم من اللغة البونية لغة الدولة و الإدارة؛ و لهذا كانت اللغة البربرية مقيدة في معاقلها، بل حتى البربر أنفسهم كانوا يتحدثون بالبونية للتفاهم إذا ما تباعدت لهجاتهم. وقد حافظ على هذه اللغة النساء البربريات اللائي كن محصورات في بيوتهن، لقن أبناءهن لغة الأجداد أكثر مما فعل الرجال.

كانت اللغة البربرية لا تحتشم من الاقتباس من اللغات الأخرى، ورغم ذلك بقيت فقيرة بعيدة التطور الأدبي؛ لبدائية بابها النحوي كما يقول ڤزال، دفع هذا المثقف البربري إلى التوجه إلى لغة غيره كلغة البونيين واللاتين ثم العربية بعدها. و مع هذا كانت للبربرية كتابتها الخاصة، لنا منها العديد من النماذج الحية، وقد أرخ "فولجونس" (FULGENCE) - وهو لايتني عاصر الو ندال- لهذه الكتابة، و أشار إلى أن الأبجدية الليبية تحوي 23 حرفا في مقابل 22 حرفا للبونية. و الظاهر أن هذه الكتابة لم يكن لها أبجدية موحدة بل اختلفت وس تعدد القبائل الناطقة والكاتبة بها، إذ بعضها يحوي 22 حرفا كالبونية. و قد حصل العلماء الاستعماريون الفرنسيون أثناء دراستهم لها حوالي 500 لوحة منها، كان أشهرهم الجنرال "فايدن هرب" (FAÏDEN HERBE) و الدكتور "ربو" (REBOUD).

و من خصائص هذا الخ أن ذا طابع هندسي، و يوجد من صنفان: صنف هندسي بنهايات حادة (زاوية)، وصنف بنهايات دائرية، و يظهر أن الثانية أحدث من الأولى. أما اتجاه الكتابة فيختلف أيضا، فنجد في نقشي "دوق" المزدوجة كتابة من اليمين إلى الشمال، و نجدها في أخرى كتابة عمودية من الأسفل إلى الأعلى. و كانوا يفصلون الكلمات بنقاط، و لكن ليس على الدوام، كما كانوا كثيرا ما يكتبون الأحرف بحروفها الصامتة (CONSOMNES) دون حروف العلة أو الصوتية (VOYELLE)، و مع كل هذا لا يعلم للبربر كتاب ألف بهذا الخ القديم.

أما عن انتشار هذه الكتابة فليست متعادلة، فآثارها في موريتانيا قليلة، و في الشرق التونسي أيضا، و نجدها بكثرة في البلاد النوميدية، و يلحظ أ عثر على كتابة ليبية في جبل سيناء ربما كتبها أحد المسافرين أو المنفيين، كما وجدت في جزر الكناري كتابات مشابهة لليبية. و لم يتم التعرف على هذه اللغة إلا بمقابلتها بالكتابات البونية اللاتينية التي تجمع معها عادة في النقائش، خاصة وأن هذه المقابلات الكتابية بين اللغتين لم تكن ترجمة لها و إنما نقلا مقابلا إلى اللغة الأخرى.

إن الحديث عن الأصل التاريخي لهذه الكتابة صعب، فهل كانت قد انتقلت من أشكال مصورة كالهيروغليفية إلى الكتابة الخطية في طريق التبسي الذي درجت علي غيرها من الخطوط ؟ هذا ما لا يعرف، إلا أ وجد منذ القديم، قيل منذ العصور الحجرية، وقيل منذ الألف الأولى ق.م، رسومات صخرية ممزوجة بأشكال شبيهة بهذه الأحرف البربرية، و نزع ڤزال إلى عدم اعتبارها كتابات خطية، وإنما رسومات فق، أو أحرف لها دلالات صوتية فق.

ورد ڤزال نظرية "فلندرز" (FLINDERS) التي ترى أن الكتابة الأبجدية الخطية قد بدأت قديما جدا في مصر، و انتقلت إلى نواحي العالم في تطور وأشكال مستمرة، كانت منها هذه الكتابة البربرية القديمة. وأكد ڤزال التشا الكبير بين هذه الأحرف والكتابات لأمم غابرة في الجزيرة العربية وغيرها من مناطق العالم، و لهذا رجح أنها كتابات منقولة من مناطق أخرى. ووافق في هذا عدد من المؤرخين، فنسبها "بلو" (BLAU) الألماني و "جوداس" (JUDAS) للأبجدية الحميرية (اليمنية)، و نسبها ":لتمان" (LITTMAN) و "باسي" (BASSET) لأبجدية شمال الجزيرة العربية (النبطية)، و رجح ڤزال أصلها الفينيقي للتشا الكبير بينهما، خاصة وأنهما تفتقدان للحروف الصوتية أو حروف العلة، و أنهما تستعملان كليهما رموزا خطية قليلة لتوضيح الدلالات النطقية للحروف الصامتة، و أكد أن الاقتباس البربري هو عن الفينيقي القديم و ليس القرطاجي الحديث. و ذهب البعض إلى أن هذا الاقتباس والتطوير كان في زمن وبدفع من الملك ماسينيسان.

ب- أثر البونية في الفكر البربري:

لقد غزت البونية الحضارة المغربية القديمة في جانبها الإداري وحتى الاجتماعي، فقد حمل العديد من أبناء الملوك ألقابا و أسماء بونية أمثال مستنبعل بن ماسينيسان، و قد بقيت البونية لغة قوية الوجود في البلاد البربرية إلى زمن الاحتلال البيزنطي، خاصة في البلاد الليبية والنوميدية. و كان هذا التفوق البوني في اللغة والكتابة راجع في أسا لكثرة اللهجات البربرية، التي كان الاعتماد عليها "مستحيلا".

و عرف البربر في عهد الملوك بدرجة أقل اللغة الإغريقية، لكن اختصت بها الأسر الأرستقراطية، وقد عرفها ماسينيسان وماسيبسة ومستنبعل... وقد كان للجالية الإغريقية في سير دور في نشر هذه اللغة وربما تعليمها. كما كانت الإغريقية منتشرة أيضا في الناحية السيرتية الليبية ظهر ذلك في بعض عملاتها. و عرفوا اللغة اللاتينية بنفس

الطريقة تقريبا، و إن كانت مشاركة بعضهم في الجيوش الرومانية سبيلا قويا في ذلك، فقد تعلم يوغرطان لغتهم في حرب "نومنس"، كما تعلمها خلف من الملوك، حتى ضرب يوبا الأول اسمه باللاتينية في عملته "REX IUBA" مع البونية.

لقد كان الأثر الحضاري القرطاجي على البربر غير ذي قلة؛ فقد كانت هذه الحضارة قائمة على أسس متينة اغترفت منها الكثير من الأمم، و رغم اندثار تراثها بعد حرق مكتبتها القرطاجية، فقد وصف حال ميراثها الفكري المتبقي القديس أغسطين بقوله:" هناك أشياء هامة ومفيدة جدا في الكتب البونية"، مما يعني أن آثارها الفكرية الكتابية قد وصلت إلى عهده مارة بزمن ملوك البربر الأوائل، حيث استفاد البربر دون شك من هذه الكتابات وهذا الفكر، واقتبسوا منه كما اقتبس اللاتيني وغيره.

ج- المراكز الثقافية و المثقفون:

كانت المدن النوميدية في فترة الملوك مناطق تلاقي ثقافي حضاري بين شعوب المتوسط، فقد كانت عديد اللغات المتداولة فيها هي البونية والليبية والإغريقية واللاتينية؛ وقد سمح هذا بتطور اللغة والكتابة البربرية، خاصة في زمن حكم ماسينيسان الذي رافقه الرخاء الذي هو صنو التحضر والتثقف، حتى ربط بعض المؤرخين ظهور الحروف الليبية بعصره أمثال "هاليفي"(HALEVY). غير أن اللغة البربرية لم ترق إلى لغة إدارة وحضارة في المدن المغربية إلا في مناسبات نادرة؛ فقد أسس ماسينيسان نظامه الملوكي على عاتق اللغة البوتية، ومثله فعل حفدته، أما على المستويات الشعبية و القبلية فكانت اللغة البربرية هي لغة التخاطب والحياة اليومية.

لهذا يمكننا القول أن المدينة كانت المركز الحقيقي للحضارة و الثقافة البربرية، فهي المجال الذي تجمعت فيه الثقافات المتوسطية، ومنها خرجت ثقافة بربرية ذات مسحة خاصة إقليمية ومتوسطة؛ فمن هذه المدن:

1- **دوقة:** كانت من أهم و أقدم المدن الداخلية البربرية، اقترن اسمها باسم الملك " أيلماس"واسم جد ماسينيسان "زيلالسن"، الذي كان يحمل لقب سبط، في إشارة للتأثير الثقافي القرطاجي المبكر على البربر. و قد أعطت نقشيه دوقة ملامحا مهمة للتأثير الثقافي القرطاجي، مما يؤكد إلى حد كبير أن المدينة كانت تحمل روحا ثقافية بربرية ذات تاثيرات قرطاجية قوية. وأصل اسم المدينة البربري هو "TBGG" من اللفظ الليبي "TBG" الذي يعني حسب "كامبس" الحفظ أو المحفوظ، لأن المدينة كانت مبنية على هضبة سهلة الدفاع.

2- **قالمة:** عرفت بهذا الاسم في الفترة الرومانية (KALAMA)، و يرى جوداس أن هذا الاسم وجد مكتوبا في النقوش ذات كتابة بونية حديثة بعدد كبير منها، غير أنه بعد فك رموز كتابتها وقراءتها تبين بأن اسمها القديم يبدو ساميا حيث لا يستبعد أن يكون "مالكا" (MALAKA)، إذ قلبها اللاتين فيما بعد لما قرءوا هذا الاسم. والمدينة بدورها قد حملت روحا بونية قوية بقيت إلى عهد الإمبراطورالروماني تراجان.

3-**سيرتا:** لا يزال اسمها مختلفا فيه، قيل أصله "كرتن" (ك ر ط ن) و معناه المدينة أو القلعة المنيعة، وهي عاصمة الممالك النوميدية، تحوي خزانة الملك في القرن 2 ق.م، كما ذكر سترابون، وكون المدينة بونية الروح مما لاشك فيه؛ لكثرة الإشارات الحضارية والثقافية بذلك، و منها أنه عثر على عملة برونزية بضواحيها كتب عليها بالبونية الحديثة اسمي بوملقارت وحانو، ويبدوا أنهما كانا سبطين للمدينة. وهي حسب الباحثين تأتي في المرتبة الثانية من حيث القيمة الحضارية بعد قرطاجة في المغرب القديم. وتقوم فرضيات في أنها كانت مركزا تجاريا بونيا داخليا مثل استثناءً قرطاجيا، لكن آثار العصور الحجرية تدل على تواجد بربري عتيق بالمنطقة. وذهب بعض الباحثين إلى أن اسم المدينة الحقيقي الأول العتيق هو "سرم بتم" (SARIM BATIM)، مما وجد على بعض النقائش الحجرية، وأكده كل من "برجي" (*BERGER*) وقزال، ويؤكد الباحث "بوشارب" أن هذا الاسم عائد إلى أصل سامي وأكادي مشرقي بالتدقيق، وتعني الكلمة في هذه اللغة بيت الملك أو قصر الملك أو مدينة الملك، فبالعبرية تعني كلمة "SARIM" الأمير، و كلمة "BETH" البيت.

إن هذه المراكز الثقافية قد خلفت عبر العصور ثقافتها البربرية الخاصة الممتزجة مع غيرها من الحضارات، وخرّجت مجموعة من المثقفين البربر الذين كتبوا باللغات العالمية الغالبة في وقتهم، من إغريقية وبونية ولاتينية، و من أشهر هؤلاء إذا ما استثنينا ملوك البربر وأسرهم، الأديب الفيلسوف " أبولبيوس" البربري.

ـأبو ليوس البربري (APULEIUS): إننا نجد عددا من الشخصيات المثقفة البربرية في سلسلة علماء العصور القديمة، وكان أشهر من يمثلها أبوليوس البربري، ولد سنة 123م وتوفي نحو سنة 170م. كان من عائلة غنية من مدينة مدوروش (MADAURE) النوميدية، كان أبوه قاضي تلك المدينة، قد خلف له ولإخوته أرضا زراعية كبيرة. مما اشتهر به أنه رغم كونه مُترومن الفكر إلا أنه بقي ينادي بأصله النوميدي الجيتولي، و قد وصفه أوغسطين أنه كان أشهر البربر في وقته، لهذا كانت رومنته محل جدال بين الباحثين.

درس أبوليوس المنطق في مدينته ثم قرطاجة ثم أثينا، وبها اهتم بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة والسفسطائية، واشتهر بالخطابة فأصبح محاميا بروما، قبل أن يصبح معلما ببلاده. و قد اهتم وتابع العديد من الديانات المشرقية ومنها ديانة الإلهة إيزيس (ISIS)، وربما أصبح كاهنا للإله إسكلبيوس.

من مؤلفاته العديدة المتميزة باللغة اللاتينية القوية الواضحة ذات الطابع المنطقي كتاب " التحولات" (METAMORPHOSES/) والتمجيد (APOLOGIE)، و الفلسفية منها: "DE DEOSOCRATIS" و"DE MAUDO"، كما له ترجمات من الإغريقية إلى اللاتينية. وأشهر كتبه التحولات، وهو أول و أكبر الروايات الأدبية المنظومة باللغة اللاتينية والوحيد الذي وصلنا بكماله. و له مؤلفات أخرى في شتى العلوم منها في الطب والديانة وعلم الفلك علم النبات.

ولم يكن أبوليوس الوحيد في مضماره، فقد شارك العديد من البربر في ثقافة اللاتينية ومعارف العلمية ممن سبق أو لحق، على أن يتميز عنهم بروح البربرية التي كان ينادي بها أثناء الاحتلال الروماني لبلاده.

المصادر والمراجع:

- اصطيفان اكصيل، تاريخ شمال إفريقيا القديم، ترجمة محمد التازي سعود، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007.
- غابرييل كامبس، البربر ذاكرة وهوية، ت. عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014م.
- محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1992م.
- سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ت. السيد يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، 1986م.
- دياكوف و كوفاليف، الحضارات القديمة، ت. نسيم واكيم الياجزي، دار علاء الدين، دمشق، ط. الأولى، 2000م.
- محمد العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، 2008م.
- محمد البشير الشنيتي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- محمد بيومي مهران، المغرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1440-1990م.
- محفوظ قداش، الجزائر في العصور القديمة، ت. صالح عباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت.